أدب الرِّحلة في النَّقد الجزائري الحديث
قراءة في إسهامي عبد الله الركيبي وعمر بن قينة.

The Literature of Travellers in Modern Algerian Criticism
Read in my contributions to Abdullah al-Rakibi and Omar Bin Qina.

طيبي بوعزة [1]
جامعة ابن خلدون – تيارت (الجزائر)
taibi.bouazza@univ-tiaret.dz

تاريخ الاستلام: 2017/11/23 تاريخ القبول: 2019/12/18 تاريخ النشر: 2020/07/09

ملخص: إنَّ الحديث عن أدب الرحلة في الجزائر هو حديث عن البدايات الأولى للأدب الجزائري، فهو من أكثر الأجناس الأدبية أصالة وقدما في الأدب الجزائري، ذلك أنَّه مرتبط بأكثر من مجال معرفي واحد، فهو على صلة وثيقة بالجغرافيا والتَّاريخ وعلم الاجتماع والسِّياسة... ومع ذلك فإنَّ الاهتمام به انحصر في فئة قليلة أغلبهم من الباحثين المختَّصين، وهذا لا ينفي بعض الجهود التي جعلت من الرحلة شغلها الشاغل، فحاولت الوقوف على أسرار هذا الجنس الأدبي وما يكتنزه من جماليات وبُنى فنِّيَّة... وعليه فقد عُني النَّاقد الجزائري بأدب الرحلة باعتباره جنسا أدبيا يحمل في مضمونه الكثير من مقومات العمل الأدبي الفني، وحاول استخلاص ما يميِّزه عن باقي الأجناس الأدبية، ومن بين هؤلاء يبرز "عبد الله الركيبي" و"عمر بن قينة"، كنموذجين ممَّن أولوا أدب الرحلة جانبا من اهتماهم النَّقدي. وعليه سنحاول الوقوف في هذه الورقة البحثيَّة على ما قدَّمه الباحثان في دراستهما لأدب الرحلة في الأدب الجزائري من خلال مؤلفيهما: "الخطاب القومي في الثقافة الجزائريَّة" لعمر بن قينة، و"تطور النَّثر الجزائري" الحديث لعبد الله الركيبي. على أن تقتصر الدراسة على إبراز الجانب الأدبي ومقومات البناء الفني للنَّص الرحلي من منظور النَّاقدين.

كلمات مفتاحية: أدب الرحلة، النَّقد الجزائري، عبد الله الركيبي، عمر بن قينة.

[1] المؤلف المرسل: طيبي بوعزة

Abstract: The talk about the literature of the journey in Algeria is a talk about the early beginnings of Algerian literature, it is one of the most authentic and present literary races in Algerian literature, as it is linked to more than one area of knowledge, it is closely related to geography, history, sociology and politics... However, the interest in it was limited to a few, mostly researchers, and this does not deny some of the efforts that made the trip a concern, so I tried to find out the secrets of this literary race and the aesthetics and artistic structures... The Algerian critic was therefore treated with the literature of the journey as a literary race with many elements of the literary work of art, and tried to draw what distinguishes him from other literary races, including "Abdullah al-Rakibi" and "Omar Ben Qina", as examples who gave the literature of the journey part of their critical interest. Accordingly, we will try to find out in this paper what the researchers presented in their study of the literature of the journey in Algerian literature through their authors: "The National Discourse in Algerian Culture", by Omar Ben Qina, and "The Evolution of the Algerian Scatter", the modern "Algerian scattering", by Abdallah Al-Rakibi. The study should be limited to highlighting the literary aspect and the elements of the artistic construction of the nomad son from the perspective of critics.

keywords; The literature of the journey, the Algerian critic, Abdullah al-Rakibi, Omar Ben Qina.

- تمهيد :

ترتبطُ الرّحلة في الفكر الإنساني بالغاية المنشودة من الانتقال من مكان إلى آخر، وهي بذلك تتنوَّع بين السِّياحة والتَّرفيه والاستكشاف والصّحة والدّين... والرّحلة ليست بالأمر المستحدَث في التَّاريخ العربي، فقد "عرفت البشريَّة الرّحلة باعتبارها فعلا إنسانيا، في كلّ المراحل، وبأشكال مختلفة، حاملة لتجارب وخبرات اختلط فيها اليومي بالمتخيّل بتلوينات وإشارات دالة."[1] فالفردُ العربي -تحديدا- منذ وجوده الأول وهو في حلٍ وترحال، لا يهدأُ له بال إلاّ باكتشاف المجهول وارتياده، غير أنَّ الرّحلة في حقل الأدب تعني "مجموعة الآثار الأدبيَّة التي تتناول انطباعات المؤلِّف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرَّضُ فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعيَّة التي يشاهدُها، أو يسردُ مراحل رحلته مرحلة مرحلة، و يجمعُ بين كل هذا في آن واحد."[2] والرّحلة الأدبيَّة في عمومها كأيّ رحلة عادية أخرى على أنَّ ما يميّزها هو كيفية تناولها وطريقة توثيقها وسردها ونقلها إلى المتلقي، فالأديبُ لا يكتفي بوصف مشاهداته وسرد أخبار رحلته بل يتجاوزُ ذلك إلى نقل ما تثيره هذه المشاهد في نفسه، الأمرُ الذي يمنحه قدرا كافيا لتوظيف عنصر الخيال وفرصة للتَّعليق على كل ما يشدُّ انتباهه من معالم حضاريَّة وتصرُّفات وعادات إنسانيَّة. وفي ذات السياق ترى "سميرة أنساعد" بأنَّ أدب الرحلة هو "مجموعة الآثار الأدبيَّة التي تتناول انطباعات المؤلّف عن رحلاته في بلاد مختلفة وقد يتعرّضُ فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق."[3] وعليه فإنَّ معظم التَّعريفات لا تخرجُ عن كون أدب الرحلة هو تلك "الرحلة التي يقومُ بها رحَّالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدوّنُ وصفا له، يسجّلُ فيه مشاهداته، وانطباعاته بدرجة من الدقَّة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التَّعبير."[4] وعلى هذا

الأساس عَرف الأدب العربي أدب الرِّحلة منذ القرون الأولى، وعكف الرَّحالة العرب على توثيق رحلاتهم وإخراجها بأسلوب فني جميل.

وفي سياق متَّصل يقدم لنا "ابن سعيد العلوي" أدب الرحلة كجنس أدبي قائم بذاته، ويرى بأنَّ له من الصفات والخصائص ما يكفي لتمييزه عن الأجناس الأدبيّة الأخرى، فهو "خطاب مخصوص له منطقه الذّاتي وبناؤه ومكوّناته وعناصره، يجمع بين الإفادة عندما يُخبرنا عمّا يراه، والإمتاع لمّا يرصدُ لنا ما هو عجيب، يفيدُ القارئ من جهة، ويمتّعُه من جهة أخرى بما يتضمّنُه من مشاهد وحقائق جديدة."[5] وهنا يمكنُنا الوقوف على وظيفتين لأدب الرحلة هما: الإفادة والإمتاع. ويذهب "شعيب حليفي" أيضا لاعتباره جنسا أدبيا، ويضمُّه إلى الأجناس الأدبيَّة السَّرديَّة، وهي عنده تنقسم إلى "قطبين كبيرين كان لهما حضور متبادل ومتواتر، هما: الشكل الخالص، والهجين، الأشكال الخالصة: المقامة والسيرة والحكاية الشَّعبية والرحلات... والأشكال الهجينة فيندرج ضمَّنَها الخبر والمحكيات الصغرى المتفرقة، ثم أدب القيامة، والتراجم والطبقات وأخبار الشعراء."[6]

ولعل أهمَّ ما مكَّن أدب الرحلة من الانتماء إلى الأشكال السرديَّة توفره على جملة من الخصائص والسمات نُجملها في:[7]

- اللغة والأسلوب: يعتمد النَّص الرحلي أسلوب سرد الحكايات، والاستشهاد بالآيات القرآنيَّة والشعر والأمثال والحكم وأسلوب التَّشويق ومبدأ التَّسلسل الخطي، وتوظيف تقنية الاسترجاع والاستطراد .
- هيمنة الفرد البطل من خلال حضوره القوي، والذي يمثِّله الكاتب باعتباره صاحب الرحلة.
- المتخيل: وهو خطاب يجدُ لنفسه قطبا واسعا تتفاعل فيه العديد من المتغيرات.

إنَّ للرحلة في التراث العربي تاريخ عريق، وقد اشتهر من العرب رحَّالة كُثر، منهم من يعود إلى القرون الأولى للهجرة كاليعقوبي (ت292ه) في كتابه "البلدان"، والمسعودي (ت345ه) صاحب كتاب "مروج الذهب"، وأبي حامد الأندلسي (ت565) بكتابه "تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب " والبيروني (ت440ه) في "الآثار الباقية"، والإدريسي (ت1160ه) في "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق". ومحمد بن جبير (ت614ه) في "تذكار الأخبار عن اتفاقات الأسفار" وابن بطوطة(ت779ه) في "تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، هذا الأخير الذي يعدُّ من أشهر الرَّحالة العرب. هؤلاء وغيرهم نقلوا إلينا التَّاريخ الحضاري والاجتماعي والثقافي السائد آنذاك، وكان لرحلاتهم - خاصة إلى أوروبا - دور في تأثُّر العرب بالأمم الأخرى والتَّأثير فيها، و"يمكن اعتبار القرن التَّاسع الميلادي بداية التَّأريخ للرحلات العربيَّة المكتوبة والموثَّقة، خاصة في ظل اتِّساع دائرة التَّأليف في التَّصنيف وفي الرسائل المتَّصلة بالمسالك والممالك وغير ذلك، فتعدَّدت الكتابات الرحليَّة في مجالات ارتبطت بتخصصات مؤلفيها في التَّاريخ والجغرافيا والأدب والخدمات السفاريَّة وفي فروع أخرى."[8] أمَّا في العصر الحديث تبرز العديد من الأسماء، كرفاعة الطهطاوي (1801-1873)، وخير الدين التونسي (1810- 1890) وأحمد فارس الشدياق(1804- 1887م) ومحمد لبيب البتنوني (ت1938م) المعروف برحلته الحجازية والشيخ محمد رشيد رضا(ت1865م) ومحمد الخضر حسين (1876- 1958م) وغيرهم. ويرى "شعيب حليفي" أنَّ الرحلة في الأدب العربي مرَّت بمرحلتين: "مرحلة أولى امتدَّت إلى حدود القرن الثامن عشر أو قبله بقليل، وتضمنت مستويات ونصوص متنوعة ذات منحى تأريخي وجغرافي واثنوغرافي، وما صاحب ذلك من أثار ذاتية ملفتة للنَّظر، والمرحلة الثانية تشكَّلت في اتصال مع المرحلة السَّابقة خلال القرنين الأخيرين، لكن بخصوصيات أخرى، وفي ظروف محدَّدة بعلاقة العرب بالآخر غير العربي عبر نصوص رحلية سفارية أساسا وأخرى زيارية."[9]

01- أدب الرحلة في النَّثر العربي:

يعتمدُ النَّص الرَّحلي بصفة عامة على تقنيتي السَّرد والوصف في نقل أحداث الرحلة ووصف مشاهداتها، ما يجعلُ منه نصا ينتمي للأجناس الأدبيَّة السرديَّة، فالسَّرد العربي "يُشكِّل صورة جليَّة لنمو الأشكال الشفويَّة المتحولة إلى نص مكتوب يتوحَّد في حقول شتى وسط كتب الأدب المتنوعة، ومؤلفات التراجم والسير والطبقات ونصوص المقامات والأخبار وكل التقاليد المحسوبة على التَّاريخ والجغرافيا الوصفيَّة والرحلات."[10] يُضاف إلى ذلك مزجه بين الواقع والخيال، فالرحلة في مجملها رحلة واقعيَّة عايش صاحبها أحداثها لحظة لحظة، غير أنَّ هذا لا ينفي عنصر الخيال عنها، وهو ضرورة تقتضيها أدبيَّة النَّص الرَّحلي، ممَّا يُضفي عليه لمسة جمالية وفنيَّة، وإلى جانب مكوني السّرد والخيال نجدُ حضورا قويا للوصف الذي يلازمُ الرحلة مهما اختلفت أنواعها وتغيَّرت مضامينها، فأصلُ الرحلة هو وصف السّفر والترحال وما تقع عليه عين الرَّحالة. وهو بذلك يقتربُ من الفن القصصي من حيث اشتماله على "الأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغيَّة، وجمال اللَّفظ، وحسن التَّعبير، وارتقاء الوصف، وبلوغه حدا كبيرا من الدقَّة، وأسلوب قصصي، سلس، مشرق."[11] الأمرُ الذي دفع بالنقاد إلى إدراج أدب الرحلة كفن من فنون الأدب العربي، خاصة بعد دراستهم للنصوص الرحليَّة المتراكمة التي وجدوا أنَّها "احتوت على الكثير من الملامح الأدبيَّة والنَّواحي الجماليَّة التي برزت في اختيار الألفاظ، وحسن الأسلوب، وجمال التَّعبير. ولهذا أضحت كتابات الرحَّالة مجالا للتَّحليل الأدبي إضافة إلى كونها سجلا إثنوجرافيا هاما."[12]

تؤكد الدّراسات النَّقدية على وجود بناء فني محكم يحكم نسيج النَّص الرحلي، يتشابه في شكله العام والبناء الفني للقصَّة والرواية، فالرحلة "تحفلُ بالمقومات الأساسيَّة للقصَّة من فكرة رئيسيَّة، وبناء، وحبكة، وبيئة زمانيَّة ومكانيَّة، وشخصيات، وبطل للقصَّة، علاوة على اللُّغة والأسلوب. فالفكرة موجودة، ومجريات الرحلة هي بناءها وحُبكتها، والبيئة الزمانيَّة ومكانيَّة محدَّدة، والشخصيات أدَّتْ دورها واقعيا، وبطلها الرحَّالة نفسه، واللغة والأسلوب الذي كان يصل في بعض الأحيان إلى درجة الإبداع المستند إلى الواقع، وكثير من الخيال في الموضوعات التي يطلقُ فيها الرحالة العنان لخياله."[13] وبالرغم من هذا التَّداخل والتَّشابه سواء من النَّاحية الشكليَّة أو المضمونيَّة لا يمكننا أن نعدَّ أدب الرحلة والرواية أو القصة جنسا واحدا، "فالرّحلة الأدبيّة إن لم تكن قصّة ولا رواية بالمعنى الدقيق فهي أخت شقيقة لهما".[14] وبذلك تبرز جمالية النَّص الرحلي عبر الأساليب الفنيَّة الموظَّفة والسَّرد القصصي الممتع والحوار الشيِّق والوصف العجائبي.

إنَّ مثل هذه المقومات تجعلُ من الرحلة في الأدب العربي "شكلا خالصا ضمن دائرة منفتحة على أنواع صغرى وكبرى، هي بناء يتناسل ويتشكَّل باستمرار، وتكتسبُ بعض المميِّزات التي تلتقي مع بعض خصوصيات الرحلات الانسانيَّة، لذلك فإنَّ الرحلة العربيَّة يمكنُ النَّظر إليها بما تتوفَّر عليه من معطيات مكثَّفة بالمقارنة مع باقي الأشكال التَّعبيريَّة في التراث السَّردي العربي."[15] ويمكن إجمال هذه المعطيات في:[16] التَّخييل الذَّاتي. التَّنوع في الأشكال. التَّنوع في الهويَّة الثقافيَّة والاجتماعيَّة.

إذن، أدب الرحلة من أكثر الأجناس الأدبيَّة تنوعا وانفتاحا وتعددا للأصوات والخطابات فهو يضمُّ في متنه أجناس أدبية أخرى كالرواية والقصة والشعر... ويتداخل مع علوم أخرى كالجغرافيا والتاريخ... وهو يتفرَّدُ

بخاصية "التَّنوع المفاجئ، إذ فيه من التَّقطع والتَّوزع فوق ما فيه من التَّواصل والتَّكامل. ويعودُ تقطُّعه إلى طبيعة التَّرحل والتَّنقل فيه، بالإضافة إلى التَّرابط بين الواقع والمتوقَّع وتكامل بين ما يرى الكاتب بعينه وما يرسمه الخيال للقارئ، وهنا يكمن السِّحر الذي يمارسه الرحَّالة ويتعرَّض له القارئ فلا يطيق أن يقاومه ولا يقوى حتَّى على التَّفلت من شباكه."[17]

02- أدب الرحلة في الأدب والنَّقد الجزائريين:

لقد عرف الأدب الجزائري الرحلة كفرع من فروع المعرفة، وفن من فنون الأدب منذ بداياته الأولى، وقد ساهم العديد من الرَّحالة الجزائريين في إثراءه والتَّعريف به، ومارسوه مشافهة وكتابة، خاصة ما تعلَّق بالرَّحلات الدِّينيَّة كالحج والعمرة وكذا الاجتماع بمشايخ الطرق الصُّوفيَّة، واشتهر منهم "أحمد بن عمار" و"محمد بوراس المعسكري" و"الورتلاني" و"ابن حمادوش الجزائري" وغيرهم. وتعتبر رحلة "المقري إلى المغرب والمشرق" لأبي العباس أحمد المقري التلمساني(1578-1631) أقدم رحلة في الأدب الجزائري بالإضافة إلى رحلة "ابن حمادوش" (1695-1785م) الموسومة بـ "لسان المقال في النبأ عن النَّسب والحسب والحال". ومن الرحلات الجزائرية الأكثر شهرة الرحلة الحجازية، والتي تهدف في المقام الأول إلى أداء مناسك الحج أو العمرة أو لطلب العلم، كرحلة "محمد بوراس النَّاصر المعسكري" (1751-1823م) المعروفة بـ "فتح الإله ومنِّته في التَّحدث بفضل ربِّي ونعمته" سنة 1817م، والتي روى فيها ما عاينه في المحيط وعايشه من أوضاع اجتماعية وتاريخية وثقافيَّة في الباب الثالث، المعنون بـ "في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما ولقاء العلماء الأعلام وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام". وهو بذلك ينقل جانبا مهما من سيرته الذَّاتية، ويكشف عن أهم القضايا التي شغلته، ولفتت انتباهه. وهناك أيضا رحلة "البوني" المعروفة بـ "الروضة الشهيَّة في الرّحلة الحجازية"، ورحلة "ابن عمار" المسمَّاة بـ "نحلة اللَّبيب في أخبار عن الحبيب". وهناك نوع آخر غير الرحلات الحجازية وهو ما يعرف بالرحلات العلميَّة، ومن أقدمها رحلة "عاشور بن موسى القسنطيني"، والتي ذكر فيها رحلته إلى بعض البلدان طلبا للعلم، وتحدّث عن غريب ما صادفه من العادات والمشاهد.

أمَّا على الصَّعيد النَّقدي، فقد تولَّت بعض الأسماء النقدية في الجزائر مهمَّة التَّحقيق ودراسة هذا التراث الأدبي، ومن بينها يبرز "أبو القاسم سعد الله" الذي كانت له تجربة في كتابة أدب الرحلة من خلال مؤلفه "تجارب في الأدب والرحلة" وقد ساعده ذلك في تكوين فكره النَّقدي الرائد والجريء، وتبلور ثقافته العامة، بالإضافة إلى أسماء أخرى، أمثال: عبد الله الركيبي في "تطور النثر الجزائري الحديث"، وعبد الملك مرتاض في "الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر"، و"فنون النثر الأدب في الجزائر1954 -1931م"، وعمار هلال في "العلماء الجزائريين في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين 20/09 الميلاديين"، وعمر بن قينة في "اتجاهات الرحالين الجزائريين"، و"الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية"، و"الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة"، وعيسى بخيتي في "أدب الرحلة الجزائري الحديث – مكونات السرد" وسميرة أنساعد في "الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري"،

2-1- الرحلة من منظور عبد الله الركيبي:

يهدفُ البحث في المقام الأول إلى الوقوف على أدب الرحلة من وجهة النَّاقد "عبد الله الركيبي" من خلال كتابه "تطور النَّثر الجزائري الحديث"، والذي بحث فيه مختلف الأنواع الأدبيَّة النثرية في الأدب الجزائري، نقدا وتحليلا، مُركزا اهتمامه على الجانب المنهجي. وهو ما جعل أعماله النقدية توصفُ بالطلائعية في الَّتنظير

النَّقدي بالجزائر، وسنحاول فيما يلي التَّركيز على معالجته لأدب الرحلة في الكتاب المذكور سابقا، وتبيان طريقة تعامله النَّقدي مع النَّص الرحلي.

خصَّص "عبد الله الركيبي" الفصل الثاني لأدب الرحلات من الباب الأول الذي وسمه بأشكال نثرية تقليديَّة، والملاحظ على أنَّ "الركيبي" في كتابه هذا يُوظّف مصطلح الفن بدل مصطلح الجنس أو النَّوع، وهو ما دأب عليه الكثير من النقاد الجزائريين آنذاك كعبد المالك مرتاض ومحمد مصايف وغيرهما من الوقوع في هذا الخلط المفاهيمي والاصطلاحي، وهو ما أقرَّ به "عبد المالك مرتاض" لاحقا، يقول: "ونحن أيضا وقعنا في هذا الخلط في بدايات حياتنا العلمية، فأطلقنا على الأجناس الأدبية في كتابنا "فنون النثر الأدبي في الجزائر" ونحن في الحقيقة لم نكن نريد إلاَّ الأجناس."[18]

إنَّ أدب الرحلة من منظور "عبد الله الركيبي" يهدف إلى "نقل ما كان يضطربُ في العصور السَّابقة إلينا، فقد شاهدنا من خلال رحلاتهم مستوى الحضارة التي بلغتها الشعوب."[19] وهو بذلك يستهدفُ الجانب الوظيفي لأدب الرحلة في المجتمع والثقافة الجزائريَّة، ثم ينتقل للجانب الفني فيها، فالرحلة بوصفها نصا أدبيا تتداخل في متنها العديد من العلوم والمعارف والأجناس الأدبية، ويؤكِّد في دراسته للنماذج المختارة من البداية على الجانب الأدبي، يقول: "والذي يهمنا في هاتين الرحلتين الجانب الأدبي لنستطيع أن نحكم على ثقافة القرن الماضي ومستوى اللغة العربيَّة، ومن جهة أخرى لنتبيَّن كيف استطاع الاستعمار الفرنسي أن يستخدم المثقَّفين للتَّنويه بحضارة فرنسا وتقدُّمها المادي والفكري والثقافي."[20] فأدب الرحلة إلى جانب كونه يحمل مدلولات حضارية وثقافية فهو يمثل وعاءً حافظ على اللغة العربية لقرون كثيرة، كما يشير إلى الفكر الاستعماري للإدارة الفرنسيَّة التي عملت على إغواء بعض المثقَّفين برحلات سياحيَّة إلى فرنسا شرط الإشادة بمناقبها وحضارتها وقيمها الوطنيَّة.

يؤكد "عبد الله الركيبي" على الجهود التي بذلها الرَّحالة الجزائريون للنُّهوض بأدب الرحلة، فقد ساهم "الرحالة الجزائريون في عصر الأتراك بمجهودات كثيرة في هذا المجال ومارس هذا الفن كُتَّاب كثيرون ولا سيَّما تلك الرحلات الدِّينيَّة التي كان يُقصد منها لقاء شيوخ الطرق الصوفيَّة والاجتماع بهم أو السفر لأداء فريضة الحج"[21] ويظهر جليا أنَّ "الركيبي" بصدد الردّ على القائلين بأنَّ الأدب الجزائري لم يعرف أدب الرحلة قديما، فهو يعود إلى عصره الذهبي خلال حكم الأتراك، وبما أنَّه العصر الذهبي فالأكيد أنَّ هناك محاولات وإرهاصات سبقته، ويقدِّم لنا توصيفا مهمًّا للرحلة الجزائريَّة بوصفها رحلة دينية في المقام الأول. ويركِّز في معالجته لبعض النماذج الرحلية الجزائرية على الموضوع المعالَج، فيأخذ ذلك منه حيِّزا كبيرا من بحثه. كما يقف "عبد الله الركيبي" على نوعين من الرحلة في المجتمع الجزائري، معتمدا في ذلك على معيار الأسلوب الموظَّف فيها، فالنَّوع الأول هو الرحلة الأدبيَّة التي يُعنى فيها صاحبها "بتصوير شعوره لوصف ما شاهد أو حاول استخلاص فكرة معيَّنة، فإنَّ رحلته حينئذ ترحل في مجال الأدب لأنَّه ينفعل ويتأثَّر ويصوِّر لنا هذا من خلال عمله الأدبي."[22] أمَا النَّوع الثاني فهو الرحلة التَّاريخيَّة وهي عنده عندما "يصف (الرحالة) الأشياء بنوع من التَّجرد، فهنا يصبح مؤرِّخا لا أديبا، لأنَّ حظَّ الخيال في رحلته يكون قليلا"[23] ومعيار التَّصنيف عند الركيبي هو معيار أدبي (الأسلوب)، وعلى وجه الخصوص تقنية الوصف الممزوجة بعنصر الخيال، ويمكننا إيضاح ذلك في المعادلتين الآتيتين:

- الوصف + الخيال = رحلة أدبيَّة.

- الوصف – الخيال = رحلة تاريخيَّة.

فالوصف وحده – في نظر الركيبي – لا يجعلُ من الرحلة فنا من فنون الأدب، إلا إذا امتزج بعنصر الخيال الذي يُضفي على النَّص الرحلي لمسة جمالية وفنيَّة، ويمنحُ صاحبه مساحة من الحريَّة في إيصال مشاعره ومشاهداته في أحسن صورة. كما يتطرَّق أيضا وبنوع من الإسهاب إلى قضيَّة الأسلوب في الرحلة الجزائريَّة، وهو أسلوب "يمتاز عامة بالتَّسجيل والوصف الإنشائي التَّعبيري ويعتمد على الملاحظة الدَّقيقة المباشرة أو على الخيال حين يكون الوصف للطَّبيعة أو الكون أو غيرهما ممَّا ينفعل به الأديب الرحالة، فيلوِّنه بشعوره واحساسه ويعطيه من نفسه الشيء الكثير."[24]

3-1-1- الرحلة الأولى: رحلة محمد السَّعيد بن علي الشَّريف:

رغم تأكيده (الركيبي) في مقدّمة الفصل المخصَّص لأدب الرحلة على أنَّ دراسته للنَّماذج المختارة ستكون دراسة أدبيَّة محضة إلاَّ أنَّه يخرج في الكثير من الأحيان عن المنهج الذي رسمه لنفسه، ففي رحلة "محمد السَّعيد بن علي الشَّريف" نجده بدل أن يدرسها دراسة أدبيَّة (الشكلية/المضمون) نجده يخصِّص حيّزا كبيرا لتقديم عرض موجز للرحلة، فيذكر: تاريخ الرحلة، دواعيها، وجهتها. المقدِّمة الدِّينيَّة (البسملة والحمد). الوقوف مطولا على مواطن الوصف (الوالي أو الحاكم، العدل والعلم في المجتمع الفرنسي، تقسيم صاحب الرحلة للعلم إلى أربعة أقسام، الباخرة، تأثير البحر في نفسه، النِّساء، الطَّعام وآداب الأكل، حفلات الرقص). النَّقل الأمين لبعض الحكايات دون زيادة أو نقصان. الاكتفاء بتقديم نماذج من الرحلة كاستشهادات دون تحليل أو دراسة.

وهو بذلك يناقش مضمون الرحلة من زاوية اجتماعيَّة وثقافيَّة، كحديثه عن العلم وإشادة صاحب الرحلة بانتشاره في فرنسا وذكره لبعض العلماء الأوربيين، ويحاول إيجاد تفسير مقنع للمقدِّمة الدِّينية ويرى أنَّها محاولة لإبعاد تهمة الولاء لفرنسا عن نفسه.

إنَّ اهتمام "عبد الله الركيبي" بالجانب الاجتماعي والثقافي في الرحلة لا يعني خلو الدراسة من بعض الإشارات النقدية والفنية والمتعلِّقة بالجانب الأدبي للنَّص الرحلي عند "ابن الشريف"، والتي استقوفته قليلا، ومن هذه الإشارات:

- الاستشهاد بأبيات من الشعر وبعض الأحاديث النَّبويَّة الشريفة والحكم والأمثال.
- الاستطراد في المقدمة.
- التَّناص مع الحكايات الشَّعبية، خاصة في المواضع التي يشعر صاحب الرحلة أنَّه استطرد في الموضوع كثيرا، فيستعين بعبارة "فلنرجع إلى المقصود الذي نحن بصدده"، والتي يقول عنها الركيبي: "وهذه الطَّريقة في عرض الأحداث شاعت لدى القصَّاصين الشَّعبيين القدامى حين كانوا يبدأون في حكاية قصَّة ويستطردون إلى موضوعات أخرى، وحين يشعرون بملل المستمع أو المتلقِّي يستخدمون هذه التَّعابير الجاهزة."[25]
- الجانب اللغوي في الرحلة، وتأكيده على ابن الشريف "يستخدم ألفاظا وتعابير حديثة مثل كلمة اللغم ولكنَّه في أحيان أخرى لا تسعفه اللغة أمام بعض الأشياء الجديدة، فيستخدم أسماءها بالفرنسية مثل كلمة أوتيل."[26]

- الانتقال المُطَّرد في المواضيع (تغيير الملابس، الأخلاق السِّياسيَّة، احترام الفرد، النِّساء، الحدائق العامة..) ومردُّ الأمر في ذلك أنَّ الكاتب "لا يهتم بربط الأحداث وتسلسل الأفكار وإنَّما ينتقل فجأة من موضوع لآخر وهو لا يراعي الرَّبط بين المواقف."[27]

2-1-2- الرحلة الثانية: رحلة سليمان ابن الصِّيام.

يُعرِّج "عبد الله الركيبيّ بعد ذلك إلى رحلة "سليمان بن الصِّيام" ويدرسها بالطريقة ذاتها التي اعتمدها في رحلة "ابن الشريف" تقريبا، ويؤكِّد على طغيان الوصف في هذه الرحلة "وقد عُني ابن الصِّيام في رحلته بالوصف: وصف الطَّبيعة والآثار والقصور التي شاهدها والقطار والباخرة ووصف المسارح والمكتبات."[28] دون أن يبرز جمالية هذا الوصف ودوره في نسيج النَّص الرحلي، بل يؤكِّد على طغيانه على الرحلة أكثر ممَّن سبقه، على أنَّ ما أضافه هو استشهاده بأحد الأغراض الشعرية (الوصف) ليُضفي على الموصوف هالة من الجمال والرَّوعة، "اهتمَّ هذا الرَّحالة بوصف الطَّبيعة اهتماما ملحوظا أكثر من سابقه وهو يستشهد من وقت لآخر بأبيات شعرية تجمع إلى وصف الطَّبيعة الإشادة بالحضارة العربية الإسلاميَّة."[29] ويقف أيضا عند المقدِّمة الدِينيَّة للرحلة، والتي افتتحها بالبسملة والحمد، وعنها يقول: "وهذه البداية تُشعرنا بتأثُّره بالدِّين، وهي سمة من سمات الرحلات في العصور القديمة، وتقليده لمن سبقه من الرَّحالة العرب والمسلمين."[30]

أمَّا عن النَّاحية الأدبيَّة في الرحلة فيرى الركيبي "أنَّ أسلوب الكاتب فيها قوي سليم في لغته خالٍ من الأخطاء النحويَّة أو من الضُّعف في التَّعبير عن الأغراض أو الأفكار أو العواطف."[31]

يُجري الركيبي مقارنة بين رحلة ابن الشَّريف وابن الصِّيام، ويخلص إلى النتائج الآتية:

	رحلة ابن الشريف	رحلة ابن الصيام
الأسلوب	يميل في أغلب الأحيان إلى السَّجع خاصة في مواقف الوصف أو الحديث عن الحكمة والوعظ والأخلاق	يخلو من السجع في معظمه.
البناء الفني	يفتقد التسلسل والترابط، وكثرة الاستطراد والانتقال في الموضوعات.	تسلسل الأفكار والأحداث إلى حد كبير، وهو نوع من التصميم المقصود من الكاتب.
المضمون	الملاحظة الدقيقة للظواهر وغلبة الوصف.	الاهتمام بالوصف إلى جانب السَّرد وإهمال التفاصيل والجزيئيات,

ويبدو واضحا مع عقد هذه المقارنة أنَّ "عبد الله الركيبي" يميلُ إلى تفضيل الرحلة الثانية (ابن الصِّيام) لابتعادها عن التكلُّف والابتذال (خلوها من السجع) بالإضافة إلى بنائها الفني المحكم الذي تميَّز بتسلسل الأفكار، وهو ما يُفسره "الركيبي" بوعي صاحب الرحلة بأدب الرحلة ومتطلَّباته، وكذا مزجه بين الوصف والسَّرد، فهي إذن أقرب إلى الأدب من أيِّ شيءٍ آخر. وهو ما جعله يقرِّر بأنَّ "النَّثر في هذا المجال بالذَّات قد تطوَّر عن مثيله من العصور السَّابقة على ذلك الوقت، وأنَّ البيان العربي في منتصف القرن الماضي ظلَّ يتمتَّع بقدر من الصَّفاء رغم ضعف اللغة العربيَّة في ذلك الحين، كذلك فإنَّ الكُتَّاب في تلك الفترة برهنوا على وعيهم بأمور وقضايا كثيرة."[32]

ينتقل "عبد الله الركيبي" في الأخير للحديث عن أدب الرحلة عند أدباء الإصلاح ممثَّلين في جمعية العلماء المسلمين (ابن باديس والبشير الإبراهيمي) ويقول عنها "إنَّ الرحلات التي جاءت في هذا القرن والتي قام بها في الغالب رجال الحركة الإصلاحيَّة من علماء وأدباء اتَّجه بعضها إلى داخل الوطن بهدف بثِّ الفكرة الإصلاحيَّة ونشرها بين جماهير الشعب ودعوتهم إلى اليقظة والنهوض، كما اتَّجه بعضها إلى المشرق العربي وإلى أوروبا والاتحاد السوفياتي وكان الهدف التَّعريف بقضيته."[33] ويبدو واضحا تركيز "الركيبي" على الجانب الوظيفي للرحلة الإصلاحية سواء أكانت داخليَّة أو خارجية. ويسجل تغييرا أصاب النَّص الرحلي من ناحية المحتوى والأسلوب، فيتحدَّث عن الرحلة الإصلاحية قائلا: "إنَّ النَّوع الثاني لم يُقصد فيه الجمال الفني أو وصف المشاهدات بل تسجيل الواقع الذي يعيشه الشعب والدعوة للحركة الإصلاحية... وهي من هذه النَّاحية تمثل نوعا من الدعاية، لذلك اختلف أسلوبها باختلاف موضوعها فرأينا ذلك السَّرد التَّسجيلي الذي يعتمد على المباشرة والتَّقرير لا على التَّصوير والإيحاء."[34] فهدف الرحلة قد تغيَّر من المتعة إلى التوعية والدعوة إلى النُّهوض لمواجهة المستعمر، ومع ذلك فقد امتاز أسلوب الشيخ البشير الإبراهيمي "إلى حد كبير بما عُرِف عنه من عناية بالصِّياغة والبيان والجمال الأدبي."[35]

وينتقل إلى رحلات "أحمد رضا حوحو" في إيجاز، ويؤكِّد على أنَّ "قيمة الرحلة في موضوعها ومضمونها وما قدمته من معلومات وأشياء جديدة، أمَّا عن جهة أسلوبها فإنَّه يغلب عليه اللَّون الصحفي ويبتعد إلى حد كبير عن الأسلوب الفني، فهي تعتمد على المباشرة ومحاولة الوصول إلى الأفكار دون اعتبار للجمال الفني."[36] بمعنى أنَّه يشير إلى تداخل المقال الصحفي مع أدب الرحلة بحكم تجربة الكاتب في كتابة المقال الصحفي التي أثَّرت على أدبه، وبالتَّالي انعكست في رحلاته.

إذن لقد كان تناول الركيبي لأدب الرحلة في النَّثر الجزائري الحديث تناولا اتنصبَّ على الناحية الموضوع والمضمون، فكان تركيزه كبيرا على موضوع الرحلة محاولا الرَّبط بينها وبين بيئة الكاتب وما يحدث في المجتمع من تغيرات، كما حاول الوقوف على أهم المواضيع المتضمنة في الرحلة وتحليلها اجتماعيا وثقافيا، وهذا لا يعني إهماله للجانب الأدبي والجمالي، والذين اقتصرا فيهما على الأسلوب واللغة وصياغة الأفكار.

2-2- الرحلة من منظور عمر بن قينة:

يُعتبر النَّاقد "عمر بن قينة" من النُّقاد الذين أولوا النَّص الرحلي عناية خاصة في دراساتهم النقدية، إذ نُحصي له ثلاثة دراسات هي: "اتجاهات الرَّحالين الجزائريين في الرحلة العربيَّة الحديثة" و"الشكل والصورة في الرحلة الجزائريَّة الحديثة" و"الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية" (موضوع الدراسة) وأدب الرحلة في منظوره هو "ضرب من السِّيرة الذَّاتية في مواجهة الظروف والأوضاع واكتشاف المعالم والأقطار ووصفها والحكم عليها، فهي إذن وصف لكل ما انطبع من ذلك وسواه في ذهن الرّحالة عبر مسار رحلته وفي احتكاكه بالمحيط، يتآزر في ذلك الواقع والخيال، وأسلوب القص والحقائق العلميّة والتَّاريخيّة والجغرافيّة والاجتماعيّة والنَّفسيَّة وغيرها."[37]

لقد خصَّ "عمر بن قينة" أدب الرحلة في كتابه "الخطاب القومي في الثقافة الجزائريَّة" بدراستين هما: معالم في جهود الرحالة المسلمين من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي إلى القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي، وصورة من الرحلة إلى الحج في النَّثر الجزائري الحديث.

2-2-1- الدراسة الأولى: معالم في جهود الرحالة المسلمين من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي إلى القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي.

بداية يؤكد "ابن قينة" على أصالة الرِّحلة وعراقتها في الأدب العربي، ويُرجع تاريخها إلى ما قبل الإسلام "منذ كانت رحلتهم للتِّجارة، من مكَّة شتاء إلى اليمن، وصيفا إلى الشام، كما هو ثابت في القرآن الكريم."[38] فهذه الرحلات كثيرا ما كانت تُروى تفاصيلها في مجالس السَّمر والأدب بكثير من التَّشويق والإمتاع وتُستقبل بحفاوة وتلهف لا نظير لهما، فالرحلة إذن قد رافقت النَّثر العربي منذ بداياته الأولى، ويستدلُّ "ابن قينة" على صحَّة ذلك بالمؤلفات التي دُونت في هذا الفن، كـ "كتاب البلدان" لأبي العبَّاس أحمد بن يعقوب، و"كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر" لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، و"كتاب الآثار الباقية" لمحمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي، ويرى أنَّ هذا الأخير كان "همزة وصل بين القرنين الرابع والخامس من الهجرة، وهي الفترة التي بلغ فيها فن الرِّحلة النضج."[39]

يقف "ابن قينة" على أهم الفروقات بين الرِّحلة الجاهليَّة ورحلة ما بعد الإسلام، فالرِّحلة "اتَّخذت لها بعد الإسلام طابعا جديدا في دوافعها التي بدأت تتعدَّد ومقصدها المتطوِّر جدا، ثم في شكلها المتميِّز أدبيا وعلميا بصفتها عملا مدونا ذا طابع فكري-علمي، بجوانبه التَّاريخيَّة والجغرافيَّة والاجتماعيَّة والأدبيَّة، وهي جوانب تختلف حظوظها بحسب الكاتب وهدفه وطريقة تعبيره في صياغة رحلته."[40] فالدافع الرئيسي في رحلة الجاهلية كان التِّجارة، أمَّا رحلة ما بعد الإسلام فيتمثَّل في الحجِّ أو العمرة أو طلب العلم، كما تضمَّن الجوانب التَّاريخيَّة والجغرافيَّة مع اتِّساع الفتوحات وانتشار الإسلام في مختلف الأنحاء، ومع ظهور الكتابة وحركة التَّدوين "مضى يتطوَّر ليكتسي أسلوبا أدبيا يعانق فيه الواقع الخيال، ويتآزران في وصف الأوضاع والبلدان وحياة الناس ومشاعرهم، وبالموهبة والحسِّ الأدبي والخيال، يكتسي عمل الرَّحالة أهميَّته الأدبيَّة الخاصَّة التي تعطي الرِّحلة رونقها الأدبي الذي تنهض به أساسا على المشاهدة المباشرة وحدها أو مع السماع والاطِّلاع على المصنَّفات التَّاريخيَّة والجغرافيَّة وغيرها."[41]

يبدو واضحا وعي النَّاقد بمسألة تداخل النَص الرَّحلي مع فنون المعرفة الأخرى (تداخل الأجناس الأدبيَّة) ويرى أنَّ مستويات الرحلة "تختلف في طابعها الأدبي أو في قُربها منه أو بُعدها عنه، فمنها ما كان رحلة أدبيَّة خالصة، ومنها ما كان عملا تاريخيا محضا أو جغرافيا بحتا أو هما معا أو أثنوجرافيا صرفا، وربَّما اجتمعت عناصر مختلفة من هذه كلها في لبوس أدبي يوفر معرفة واطِّلاعا ومتعة أدبيَّة وأثرا فكريا وفنيا."[42]

ينتقل بعد ذلك إلى تتبع المسار التَّاريخي لأدب الرِّحلة عند العرب، فيذكر بعض النماذج الرَّحليَّة من قرون مختلفة ومتباعدة، محاولا الوقوف على أهم السِّمات والخصائص، فيعرض لابن جبير وابن بطوطة، والحسن بن محمد الوزان، والياقوت الحموي وغيرهم.

ويمكن أم نلخص أهمَّ ما ذكره في هذا الباب فيما يلي:

الرحالة	خصائص أدب الرحلة
ابن جبير	ارتقى بها إلى مستوى أدبي رفيع في عصره، وأهَّلها لأن تكون نموذجا لا ينازع على أفضل ما كتب في أدب الرحلة الخالص في العصور الوسطى، نظرا لتميُّزها بطابعها الأدبي الخالص
ابن بطوطة	انتقلت إلى مستوى عالمي أوسع، ومستوى أدبي رفيع ومجالها الجغرافي الواسع.
الحسن بن محمد الوزان	استمدَّت أهميتها من شخصية صاحبها وحياته التي عرفت اضطرابات كثيرة، وقد ضمَّت

	جانبا كبيرا من سيرته,

أمَّا عن الرحلة في الجزائر فيعرض "ابن قينة" للشيخ الورتلاني صاحب الرحلة الورتلانيَّة، وهي في رأيه "من أحسن ما ختم به القرن الثاني عشر الهجري في مجالها لا لطابعها الفكري والأدبي فحسب، بل لما انعكس فيها أيضا من أوضاع مختلفة في الوطن العربي اقتصادية وثقافية واجتماعية وسياسية كذلك، إضافة إلى الجانب الديني."[43] وهو بذلك يصنِّفها في خانة الموسوعات نظرا للجوانب المختلفة التي طرقها فيها صاحبها.

كما يناقش "ابن قينة" أثر حركة الإحياء في بعث أدب الرحلة من جديد في الوطن العربي عامة وفي الجزائر خاصة، يقول: "ونحن أمام حركة فكرية في الوطن العربي بدأت ملامحها تلوح في الأفق، وقد انطلقت من إحياء التراث وإبراز الصور الإيجابية فيه، إضافة إلى حركة الترجمة من الغرب والقيام بالرَّحلات العديدة المختلفة إلى أوروبا خاصة بعد حملة نابيلون على مصر وسياسة محمد على ومن تبعه في تشجيع البعثات العلميَّة إلى الخارج، وكان من رجال البعثات من أسهم في كتابة الرحلة فكان إذن من أوجه الاحتكاك ما كتبه الرَّحالون ونقلوه إلى أوطانهم ومواطنيهم لتعريفهم بإنجازات الغرب."[44] فهذه العوامل مجتمعة ساهمت في بعث أدب الرحلة من جديد والدفع به إلى الأمام بضع خطوات، ومع اتِّساع مجال الرِّحلة وانفتاحها على أوروبا "بدأت تكتسي الطَّابع الأدبي والسياسي والفكري، مع تراجع الجانب الجغرافي والتاريخي فيها، فصار ثانويا."[45] وهي المرحلة التي انفصلت فيها الرحلة الأدبية أو أدب الرحلة عن باقي الأنواع، واستَّحقت بذلك أن تحوز مرتبة الجنس الأدبي المستقل بمقوماته الفنيَّة والأدبيَّة.

هذا باختصار الجانب النَّقدي الأدبي الذي عالجه "عمر بن قينة" فيما يخص أدب الرحلة في كتابه "الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية"، ومن أهم النتائج التي توصل إليها:

- إنَّ الاهتمام بهذا الفن في النَّثر العربي كان مبكرا.
- ظهور فن الرِّحلة بداية من المشرق لينتقل بعد القرن الخامس الهجري إلى المغرب العربي.
- بلوغ الرِّحلة مستوى راقيا في أواخر القرن الرابع الهجري كفن مكتوب له سماته وخصائصه وملامحه، وتميُّزه بين الأنواع الأدبية الشائعة آنذاك.
- بداية الرحلة كانت ذات طابع جغرافي وتاريخي للتطور فيما بعد إلى طابع أدبي وسياسي واجتماعي واقتصادي.

2-2-2- الدراسة الثانية: صورة من الرحلة إلى الحج في النثر الجزائري الحديث:

بعدما ناقش "ابن قينة" الرحلة في صورتها العامة في الوطن العربي في دراسته الأولى ينتقل ليخصَّها بالنَّثر الجزائري الحديث، خاصرا إيَّاها في رحلة الحج، ويرى أنَّها قد لازمت الأدب الجزائري أيضا في بداياته الأولى، يقول: "أدب الرِّحلة من الفنون الأدبيَّة التي عرفت ازدهارا في أدبنا العربي منذ القرون الأولى، ومنه الأدب الجزائري، وكانت هنا نشأتها لغاية الحج أساسا والتَّعليم بعد ذلك."[46] فيحصر دواعي وأسباب الرِّحلة في الجزائر في سببين اثنين، هما: الحج أو العمرة، والتَّعليم.

وعليه يقرِّر "ابن قينة" أنَّ رحلة الحج في الأدب الجزائري قد استمرَّت كرحلة تسيطر فيها تيمة الحج إلى ما قبل القرن التَّاسع عشر ثم القرن العشرين، أمَّا في هذين القرنين فقد أضحت "رحلة الحجِّ جزءا من رحلة عامة، يأتي فيها الحج أو العمرة فقط جزءا، ربما لتراجع الحوافز والمثيرات التي تدفه هذا الكاتب أو ذلك لكتابة انطباعاته والتعبير عن مشاعره."[47] وهو أمر طبيعي في وجود المستعمر الفرنسي الذي فرض قيودا على الشعب الجزائر تمنعه من السفر خارج الجزائر أو حتَّى التنقل داخلها.

يناقش "ابن قينة" رحلة "الغسيري" المعروفة بـ "عدت من الشرق"، ويقف عند أهمِّ محطَّاتها: مقدِّمة الرحلة ودواعيها، الإجراءات الإدارية في مصر، وصف الكاتب لمشاعره وهو متَّجه صوب مكَّة المكرَّمة.، الاستطراد في الحديث عن مكَّة ودورها الحضاري والتَّاريخي ومكانتها في قلوب المسلمين، وصف مناسك الحج.

أمَّا عن النَّاحية الأدبية فيكتفي "ابن قينة" بالحديث عن الأسلوب الأدبي في وجهه العام "صاغ الغسيري الحديث عن حجِّه بأسلوب أدبي جيِّد في ظلال دينيَّة مُوشَّاة بتوق صوفي خاص."[48] وعن اللغة يقول: "عكست فعلا طبيعة الانفعال بالمناسبة والمكان، فزُخرت بمختلف الأحاسيس والمشاعر والصور ذات الظلال الدِّينيَّة المشرقة... ورغم أنَّها من رحلة عامة تعدَّدت أغراضها، فإنَّها تأتي متميِّزة فكريا وفنِّيا في هذه الفترة."[49] إذن، فالشيء الملاحظ في هذه الدراسة هو عدم استقلالية رحلة الحجِّ في كتاب لوحدها، و"عدم العثور على نص مستقل لرحلة الحج لا ينفي قيام كُتَّاب وأدباء كثيرين برحلات حج مثل غيرهم، لكنَّه يلفت النَّظر إلى عزوف لدينا عن فن أدبي إنساني جميل أصيل في تراثنا وحضارتنا الإسلاميَّة."[50]

- الخاتمة:

وفي نهاية هذه الورقة البحثيَّة، يمكننا إجمال ما توصَّلنا إليه في:

- يُعتبرُ أدب الرِّحلة جنسا أدبيا، يسجِّل فيه الأدباء والرَّحالة رحلاتهم وأسفارهم بلغة أدبيَّة فيها الكثير من التَّشويق والسَّرد الأدبي الجميل بالإضافة إلى توظيف عناصر الخيال والوصف.
- انتماء أدب الرِّحلة إلى الأجناس الأدبيَّة السَّردية نظرا لتوفره على مقومات النَّص السَّردي.
- إنَّ الرِّحلة باعتبارها فنًّا أدبيا قد رافقت الأدب العربي منذ بداياته الأولى، وتعود جذورها إلى العصر الجاهلي.
- تداخل الكثير من العلوم والمعارف مع النَّص الرحلي، كالتَّاريخ والجغرافيا والأثنوجرافيا والسيرة الذاتيَّة والأدب...
- لقد شهدت البدايات الأولى للنَّثر الجزائري محاولات عديدة لأدب الرحلة، لتتطور فيما بعد وتفرض حضورا قويا وتكتسب مكانة بين الأجناس الأدبية.
- عرف أدب الرحلة في الجزائر أسماء كبيرة ساهمت في تطوره والرقي به، على غرار : المقري، ابن حمدوش والشيخ الورتلاني والغسيري...
- إنَّ النقد الجزائر لم يُغفل أهميَّة ودور أدب الرحلة، بل عُني به هو الآخر دراسة وتحليلا وتحقيقا.
- لقد حاول عبد الله الركيبي أن يُلقي نظرة عامة في كتابه "تطور النثر الجزائري الحديث" حول أدب الرحلة في الجزائر، مُعرِّفا به وبأهم كتَّابه.
- استنفد الركيبي جهده في مناقشة الأفكار ومضمون النَّص الرحلي الجزائري.
- تركيز الركيبي على الأسلوب واللغة وصياغة الأفكار إذا ما تعلَّق الأمر بالجانب الأدبي للنَّص الرحلي.
- محاولة "عمر بن قينة" الربط بين الرحلة في الجزائر والخطاب القومي العربي، من خلال توخُّد أسبابها ودواعيها والتي تمثَّلت أساسا في الحج أو العمرة أو طلب العلم.
- تراجع رحلة الحجِّ في الجزائر، فأصبحت موضوعا جزئيا في أدب الرحلات بعدما كانت تيمة أساسيَّة تُميِّز الرِّحلة.

هوامش البحث:

[1]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التَّجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية، العدد 121، أبريل 2002م، ص05.

[2]- مجدي وهبة و كامل المهندس، معجم المصطلحات الأدبية، مكتبة لبنان، بيروت، ط02، 1984م، ص17.

[3]- سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2009م، ص 31.

[4]- إنجيل بطرس، الرحلات في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، العدد 07، يوليو 1975م، ص 52.

[5]- سعيد بنسعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات كلّية الآداب، الدار البيضاء، ط 01، 1995م، ص14.

[6]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، دار القرويين، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 2003م، ص 20.

[7]- ينظر: المصدر نفسه، ص ص26-27.

[8]- م ن، ص05.

[9]- م ن، ص ص05-06.

[10]- م ن، ص16.

[11]- سيد حامد النساخ، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، د ط، د ت، ص 8

[12]- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 138، يونيو، 1989م، ص08.

[13]- عواطف بنت محمد يوسف، كتب الرحلات في المغرب الأقصى، دار الملك عبد العزيز- الرياض، 2008م، ص21.

[14]- حسين نصّار، أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط01، د ت، ص 132.

[15]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص ص07-08.

[16]- ينظر: م ن، ص ص07-08.

[17]- الخامسة علاوي، العجائبية في أدب الرحلات، رحلة ابن فضلان نموذجا، رسالة لنيل شهادة الماجستير، منشورات جامعة متنوري، قسنطينة 2006/2005م، ص 15.

[18]- عبد المالك مرتاض، في نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط02، 2010م ص62.

[19]- عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، د ط، 2009م، ص55.

[20]- المصدر نفسه، ص57.

[21]- م ن، ص55.

[22]- م ن، ص56.

[23]- م ن، ص5.

[24]- م ن، ص57.

[25]- م ن، ص62.

[26]- م ن، ص63.

[27]- م ن، ص67.

[28]- م ن، ص69.

[29]- م ن، ص71.

[30]- م ن، ص ص69-70.

[31]- م ن، ص74.

[32]- م ن، ص75-76.

[33]- م ن، ص76.

[34]- م ن، ص ص76-77.

[35]- م ن، ص79.

[36]- م ن، ص80.

[37]- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1995م، ص07.

[38]- عمر بن قينة، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، منشورات اتِّحاد الكتاب العرب، 1999م، ص07.

[39]- المصدر نفسه، ص09.

[40]- م ن، ص07.

[41]- م ن، ص08.

[42]- م ن، ص08.

[43]- م ن، ص13.

[44]- م ن، ص14.

[45]- م ن، ص14.

[46]- م ن، ص23.

[47]- م ن، ص23.

[48]- م ن، ص26.

[49]- م ن، ص26.

[50]- م ن، ص26.

- قائمة المصادر والمراجع:

01- أنساعد سميرة (2009) الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.

02- بطرس إنجيل (يوليو 1975) الرحلات في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال.

03- بن قينة عمر (1995) في الأدب الجزائري الحديث، تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

04- بن قينة عمر (1999) الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، منشورات اتِّحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا.

05- بنت محمد يوسف عواطف (2008) كتب الرحلات في المغرب الأقصى، دار الملك عبد العزيز- الرياض.

06- حليفي شعيب (2003) الرحلة في الأدب العربي، دار القرويين، الدار البيضاء.

07- حليفي شعيب (أبريل 2002) الرحلة في الأدب العربي، التَّجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية.

08- الركيبي عبد الله (2009) تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي.

09 - سيد حامد النساخ، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، د ط، د ت، ص 8

10- علاوي الخامسة (2005-2006) العجائبية في أدب الرحلات، رحلة ابن فضلان نموذجا، رسالة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، منشورات جامعة متنوري، قسنطينة، الجزائر.

11- العلوي سعيد بنسعيد (1995) أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات كلّية الآداب، الدار البيضاء.

12- محمد فهيم حسين (1989) أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

13- مرتاض عبد المالك (2010) في نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.

14- نصّار حسين (د ت) أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر.

15- وهبة مجدي و المهندس كامل (1984) معجم المصطلحات الأدبية، مكتبة لبنان، بيروت.